524
مدار الوطن للنشر
WWW.MADAR-ALWATAN.COM

كيف تكون حليما؟

إعداد »
القسم العلمي بمدار الوطن

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب
الرياض - ص. ب 3310 - هاتف 4792042 فاكس 4723941

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فمن أجمل ما يتحلى به المرء: خُلُق الحلم، وهو أحق الصفات والأفعال بذوي العقول والألباب؛ لما فيه من شرف النفس وعلو الهمة، وسعة الصدر، وسلامة البدن واجتلاب الحمد.

وقد قال النبيُّ ﷺ لأشجّ عبد القيس: «إن فيك لَخَصْلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» [رواه مسلم].

والحلم هو ضبط النفس عند هيجان الغضب، وترك الانتقام مع القدرة عليه. وبذلك يكون علامة قوة وصحة وليس علامة ضعف ومرض، والنبيُّ ﷺ يقول: «ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [متفق عليه].

والأناة: التؤدة.

النبيُّ ﷺ والحلم

والحلم هو خلق نبينا محمد ﷺ، فقد كان ﷺ أحلم الناس وأصبرهم على أذى الخلق، فكم كان الكفار والمشركون والمنافقون وجفاة الأعراب يُسمعونه ما يكره، ويقولون له ما يُغضب، ويتعنتون معه أشدّ التعنت، فمن قائل: كذاب، ساحر، كاهن، مجنون.

ومن قائل: أما وجد الله غير محمدٍ يرسله إلينا؟ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١]. ومنهم من اتهمه في عرضه، وقال في زوجه الصديقة بنت الصديق قولًا عظيمًا..

ومنهم من ازداد تعنته فقال له: يا محمد! قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادًا ولا أقل مالًا، ولا أشدّ عيشا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، ولييعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول حقٌّ هو أم باطل؟!! فأخبرهم النبيُّ ﷺ أنه لم يبعث بهذا وإنما جاء من عند الله بالحق الذي يدعوهم إليه، فإن قبلوه فازوا وسعدوا، وإن ردوه صبر عليهم حتى يحكم الله بينه وبينهم.

فانتقلوا من هذا التعنت إلى تعنتٍ آخر فقالوا له: إن لم تجبنا إلى ما سألناك فسل ربَّك يبعث مَلَكا يصدّقك بما تقول، وسله أن يجعل لك جناتٍ وكنوزًا وقصورًا من ذهبٍ وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، فأجابهم النبيُّ ﷺ بمثل ما أجابهم به أولًا.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ـ٩٣].

صبر النبيّ ﷺ وتحمل كل هذه العذابات والآلام، «جاءه أعرابي بوّالٌ على عقبيه لا يساوي فلسًا، فجبذه بردائه جبزًا شديدًا حتى أثرت حاشيةُ الرداء في صفحة عنقه ﷺ وقال له: يا محمد!! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك، وأمر له بعطاء» [متفق عليه].

- وقيل له مرة: يا رسول الله! ادع على المشركين فقال: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة» [رواه مسلم].

- وجاءه الطفيل بن عمرو الدوسي، فقال له: يا رسول الله إن دوسًا عصت وأبت، فادع الله عليهم. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه. فقال الناس: هلكت دوس، فقال ﷺ: «اللهم اهد دوسًا وائتِ بهم» [متفق عليه].

هكذا كان حلمه ﷺ وصبره على الأذى، ولو أراد

لأذاق من يؤذيه حرارةَ السيف، وألم السوط، ولكنه ﷺ كان يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعرض عن الجاهلين وإنهم لأهون شيء عليه، وقد وصفه الله تعالى بأجمل وصفٍ فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، فكيف يدَّعون بعد ذلك أن محمدًا ﷺ كان متعطشًا للدماء؟

كيف يقولون ذلك وهو الذي عفا عن أهل مكة يوم الفتح، وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، مع أنهم حاربوه وجدّوا في عداوته، وأخرجوه من بلده، وعذبوا أصحابه وقتلوا منهم نفرًا كثيرًا..

قال الماوردي في صفة حلمه ﷺ: «فكان ﷺ أحلم في النفارِ من كلّ حليم، وأسلم في الخصام من كلِّ سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب، فلم توجد منه نادرة، ولم يحفظوا عليه بادرة، ولا حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزغات الهوى وطيش القدرة؛ ليكون بأمته رؤوفًا، وعلى الخلق عطوفًا.

قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما

نفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجلَّةُ والدون، فكلما كانوا عليه في الأمر أشدّ وألحّ، كان عنهم أعرض وأصفح، حتى قهر فعفا، وقدر فغفر، وقال لهم حين ظهر بهم عام الفتح... ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢][1].

كيفية اكتساب الحلم

الحلم إن لم يكن في الإنسان سجيةً وطبعًا، فإنه يمكن أن يكتسب بالتجربة والصبر، ولذلك قال معاوية رضي الله عنه: لا حلم إلا بالتجربة. وعن أبي الدرداء قال: إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتوخَّ الخير يُعطه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقه.

وكان الناس إذا تعجبوا من حِلْم الأحنف بن قيس قال لهم: إني لأجد ما تجدون ولكني صبور.

قال ابن حبان: «العاقل يلزم الحلم عن كافة الناس، فإذا صعب ذلك عليه فليتحالم، لأنه يرتقي به إلى درجة الحلم.

احفظ لسانك إن لقيتَ مشاتمًا
لا تجرينَّ مع اللئيم إذا جَرَى
من يشتري عِرْضَ اللئيم بِعِرْضِه
يحوي الندامةَ حين يقبضُ ما اشترى

---

(١) علامات النبوة ص (٢٨٨، ٢٨٩).

فالواجب على العاقل إذا غضب واحتدَّ أن يذكر كثرة حلم الله عنه، مع تواتر انتهاكه محارمَه، وتعدّيه حُرُماتِه، ثم يَحْلُم، لا يُخرجه غضبه إلى الدخولِ في أسباب المعاصي»[1].

الحلمُ الممدوحُ

لـمّا كان الحلم هو ترك الغضب، فالممدوح منه كان مع كمال الغضب وقوته، فإن لم يكن للمرء قوة غضب فهو نقصان.

غير أن الحلم يحسُن في محلِّه، فأما إذا كان من حقوق الله تعالى، وصيانة الحُرم، ومصلحة العامة، فلا يحسُن فيه الحلم كما قيل:

إذا قيل حلمٌ قلت للحلْمِ موضعٌ
وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلُ

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ خادمًا ولا امرأةً قطّ، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيءٌ فانتقم من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله، فينتقم لله عزَّ وجلَّ» [رواه مسلم].

أسباب الحلم

ينبغي أن يكون السبب الرئيس الباعث على الحلم هو طلبُ مرضاتِ الله تعالى ورجاءُ عفوه، كما قال

---

(١) روضة المحبين ص(٣٤٧، ٣٤٨) باختصار.

تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] وهكذا كان حلم النبي ﷺ.

وقد ذكر الماوردي عشرة أسباب للحلم، وهي على سبيل الاختصار:

الأول: الرحمة للجهال:

- قال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجلٍ أسمعه كلامًا: يا هذا! لا يُغْرِقنَّ في سَبِّنا، ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.
- وشتم رجلٌ الشعبيَّ فقال له: إن كنت كما قلت فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلتَ، فغفر الله لك.

الثاني: القدرة على الانتصار: وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة.

وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم: عفو المقتدر، وجود المفتقر.

الثالث: الترفع عن السِّباب: وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: شرف النفسِ أن تحمل المكاره، كما تحمل المكارم، وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيدًا لحلمه.

وقد قال الشاعر:

لا يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن كرُموا
حتى يذلوا - وإن عزّوا - لأقوامِ
ويُشْتَموا فترى الألوانَ مسفرةً
لا صفحَ ذلٍّ ولكن صفح أحلامِ

الرابع: الاستهانة بالمسيء: كما قال بعض الزعماء في شعره:

أو كلما طنَّ الذبابُ طردته
إن الذبابَ إذن عليَّ كريمُ

وأكثر رجل من سبِّ الأحنف، وهو لا يجيبه، فقال: والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه.

وأسمع رجلٌ ابنَ هبيرة فأعرض عنه، فقال له الرجل: إياك أعني. فقال له: وعنك أعرضُ. وقال عمرو بن عليّ:

إذا نطق السفيه فلا تُجِبْه
فخيرٌ من إجابتِه السكوتُ
سكتُّ عن السفيه فظنَّ أني
عييتُ عن الجوابِ وما عييتُ

الخامس: الاستحياء من جزاء الجواب: وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة، وقد قال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلي بصورته، والإغضاءُ عن الجاهل خيرٌ من مشاكلته.

السادس: التفضُّل على السبّاب: فهذا يكون من الكرم، وحبِّ التألف.

وقال الأحنف: ما عاداني أحدٌ قطّ إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصالٍ: إن كان أعلى مني، عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه،

وإن كان نظيري تفضلت عليه.

السابع: استكفاف السَّابّ، وقطع السِّباب: وهذا يكون من الحزم، كما حكي أن رجلًا قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعتَ عشرًا، فقال له ضرار: والله لو قلتَ عشرًا، لم تسمع واحدةً.

وقال بعض الحكماء: في إعراضك صَوْنُ أعراضك. وقيل:

قل ما بدا لك من زورٍ ومن كذبٍ
حِلْمي أصمُّ وأذني غيرُ صماءِ

الثامن: الخوف من العقوبة على الجواب: وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم. وقد قيل في منثور الحكم: الحلم حجابُ الآفات.

التاسع: الرعاية ليدٍ سالفة وحرمة لازمة: وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد، وقد قيل في منثور الحكم: أكرم الشيم أرعاها للذمم.

العاشر: المكر وتوقع الفرص الخفية: وهذا يكون من الدهاء.

وقد قيل في منثور الحكم: من ظهر غضبه قلَّ كيده. وقال إياس بن قتادة:

تُعاقب أيدينا ويحلم رأيُنا
ونشتُم بالأفعالِ لا بالتكلمِ

* * *